مجلة العلوم الإنسانية العدد 31 - جوان 2009، المجلد أ، ص.ص.243-255

الحاكم في النظام السياسي اليهودي: التولية والعزل

ملخص

يناقش هذا المقال الشروط التي تضعها اليهودية لتولى السلطة والطرق الوصول إليها وفقدها في النظام السياسي اليهودي، وذلك من ثلاثة جوانب أساسية:

- شروط توليته، حيث نتعرض لشرطين لا يمكن تولي السلطة من دونهما: النسب اليهودي والإيمان باليهودية.
- طرق تولية الحاكم : يعرض لكيفية وصول المترشح للسلطة لمنصبه.
- طرق عزل الحاكم حيث يتعرض للكيفية التي يفقد بها الحاكم سلطته.

د. معيرش موسى
المركز الجامعي خنشلة
الجزائر

Résumé

Cet article traite du détenteur du pouvoir dans le système juif sous trois différents aspects:

1-les conditions nécessaires à la détention du pouvoir politique dont cette réflexion traitera deux aspects sans lesquels toute prétention à une pratique serait vaine.

Nous aborderons dans cette perspective, la filiation juive et la croyance en la religion hébraïque.

2- L'article traitera aussi des procédés de pratique de pouvoir dont le potentiel candidat doit dévoiler les aspects en concrétiser les objectifs.

3- Les méthodes d' « impeachment » sont discutées.

مقدمة

من المسائل الأكثر جدلا في الفكر السياسي القديم والحديث، الكيفية التي يتم تعيين الحاكم وفقها، وتغيره أو عزله، فإذا أخذنا مصر القديمة أو بلاد بابل وحتى اليونان فإن الكيفية الأكثر استعمالا هي الوراثة، فالملك أو الحاكم في هذا البلاد يعد إلها أو من سلالة إلهية، وهذا ما يجعل السلطة تنتقل تلقائيا إلى أحد أبنائه أو أحد أحفاده باعتباره من هذه السلالة ووريثا لسلفه، ويملك حقا مقدسا في حكم الناس (1).

ومعنى هذا أن السلطة تتولى عن طريق الوراثة، فالملك في حياته في أكثر الأحيان يعين من يخلفه، وهذا ما يعرف بولاية العهد، التي نجدها ما تزال لحد الساعة تعتمد عليها الكثير من

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2009.

الأنظمة الملكية (2)، بل وأن الأنظمة الجمهورية في عصرنا الحالي تنص صراحة في دساتيرها على الكيفية التي تتم فيها عملية انتقال السلطة في حالة الوفاة أو الاستقالة أو الإقالة.

إلا أ ن هذا يدفعنا إلى أن نتساءل عما إذا اقتصر النقاش في هذه المسألة على الفلسفة وأهمل الدين ذلك،وإذا كانت المسألة موضع الدراسة قديمة قدم الجماعة البشرية ذاتها فهل عرفت الديانات السماوية بعامة واليهودية خصوصا وأن هذه الديانة لم تكتفي بتوجيه المؤمن بها في عقائده وتصوراته فحسب، وإنما في طريقة حياته أيضا،ولمعالجة أكثر دقة ناقشنا الموضوع في اليهودية أولا ثم في الإسلام لنختتم بالمقارنة.

أولا شروط تولي السلطة اليهودية:ناقشت الكثير من الفلسفات والأديان القديمة منها والحديثة مجمل الشروط المتعلقة بتولي السلطة في الدولة بغية تنظيم المجتمع السياسي والديني، وإذا ما عدنا إلى الفلسفة اليونانية نجدها ناقشت هذه المسألة، فإذا أخذنا أفلاطون نجده يؤكد على أن المشكلة الفلسفية الحقيقية كما يرى عبد الرحمن مرحبا هي في الواقع مشكلة سياسية، بمعنى أنها "مشكلة المدينة التي لا يجد الفيلسوف فيها مكانا لنفسه (3).

ويعود هذا إلى كون الأنظمة السياسية المعروفة في عصره- والتي يعتبرها ناقصة لكونها- لا تضع الناس في موضعهم الحقيقي وخاصة الفيلسوف خاصة ولهذا لا سبيل إلى إقامة مدينة فاضلة في هذه الأرض دون نظام تربوي محدد يضعه الفيلسوف لكي لا يكون غريبا في وطنه،والسبب يكمن في كون الدولة في حقيقتها صورة عن الأفراد، وإذا ما كان الفرد يمتاز بأنه ناطق على أساس أن القوة الناطقة فيه أفضل المميزات فإن القوة التي يجب أن تقو م بقيادة وتوجيه الدولة تكمن في عقلها المفكر الذي هو الفيلسوف.ومعنى هذا أن الشرط الأساسي الذي يجب أن يتوفر في الحاكم الحقيقي هو أن يكون فيلسوفا.وقد ناقش "أفلاطون "المسألة السياسية بعامة وشروط تولي السلطة بخاصة في العديد من أعماله السياسية وخاصة "الجمهورية"هذه الأوصاف كما يذكر محمد علي محمد وعلي عبد المعطي محمد عبارة أوصافا فطرية وليست مكتسبة (4) وبهذا فإنه ليس كل من يستطيع أن يحرز الأصوات يمكنه أن يدير دولة، فالإنسان عندما يصاب بالمرض يستدعي أخصائيا حاصل على شهادة في الطب، وأعد بكيفية خاصة لعلاجه، وعندما تحتاج الدولة إلى من يتولى سلطاتها فإنه يتعين أن تستدعي أحكم الرجال فيها وأعقلهم وهم الفلاسفة (5).

أما إذا عدنا إلى الفلسفة الإسلامية، فنجدها هي الأخرى قد ناقشت هذه المسألة في كثير من قضاياها، ولعل "الفارابي" أحد أهم الذين ناقشوا هذه المسألة في العديد من أعماله، وخاصة في كتاب "أراء أهل المدينة الفاضلة،" الذي يتحدث فيه عن شروط تولي السلطة في الدولة مبرزا المزايا العديدة للاختيار بين أشخاص عديدين. وإذا ما

كان "أفلاطون " من قبل قد أشاد بالملك الفيلسوف، فإن "الفارابي" يشد إضافة إلى ذلك بالنبي بمعنى أن الحاكم الأفضل و الأمثل يجب أن يكون نبيا مرسلا (6).

قلنا سابقا أن السلطة السياسية في الدولة والمجتمع العبريين لا تخرج إطلاقا عن الدين، بل أنها تعمل على ترسيخ هذا الدين عند أتباعه، وهو ما يجعل من يتولى هذه السلطة لابد وأن تتوفر فيه شروط خاصة فما هي :

1- الأصل اليهودي:

لعل الشرط الأول الذي يجب أن يتوفر في من يتولى السلطة عند اليهود هو أن يكون من نسل أحد الأسباط الإثناء عشر، بمعنى أن ينتمي إلى نسل يعقوب، لكن دون أن يكون من نسل هارون، لأن أبناء هذا الأخير يقومون بوظيفة الكهانة وهو ما نجد الإشارة إليه في سفر ' الخروج' في قوله:" وتلبس هارون أخاك إياه وبنيه معه وتمسحهم وتملأ أيديهم وتقدسهم ليتكهنوا لي... فتكون على 'هارون' وبنيه عند دخولهم إلى خيمة الاجتماع أو عند اقترابهم إلى المذابح للخدمة في القدس، لئلا يحملوا إثما ويموتوا فريضة أيديه ولنسله من بعده" (7).

ويرى" سبينوزا" أن سبط 'لآوى' كله كان مبعد بوجه عام من الاشتراك في الحكم، فضلا أن يكون على رأس هذا الحكم وهذا ما يجعله يمنع من الاستحواذ على الممتلكات التي كان من الممكن أن تزيده قوة بعد توليه السلطة الروحية الممثلة في الكهانة (8) المؤسسة الدينية التي كان يديرها، ويبدو أن هذا الأمر يثير الكثير من التساؤلات خصوصا وأن اليهودية تجمع بين السلطة الدينية والسياسية، وهكذا إذا ما بحثنا في الأصول التي انتمى إليها حكام بني إسرائيل سواء أكانوا ملوكا أو قضاة فإننا نجدهم ينتمون إلى أبناء يعقوب الآخرين دون أبناء 'لآوى'.

فيوشع بن نون' خليفة'موسى' لم يكن من نسل' لآوى' وكذلك' داود 'وأبنائه الذين يعودون لنسل يهوذا من جهة الأب (9)، والآمر كذلك بالنسبة لبقية الملوك و حتى القضاة الذين سبقوا المرحلة الملكية وتولوا السلطة بعد وفاة خليفة النبي' موسى.'حيث أن جميعهم ينتمون الى أحد أبناء يعقوب الأحد عشر، وتجدر الإشارة هنا إلي أن هذا الشرط لم يلتزم به اليهود حرفيا في بعض الحالات كما هو الأمر بالنسبة لداود مثلا الذي يعود نسبه لغير اليهود من ناحية الأم رغم أن النسب في اليهودية يعود أحيانا للام وليس للأب.

2- الإيمان باليهودية:

يعد الإيمان بالديانة اليهودية أحد أهم الأسس التي يجب توفرها فيمن يتولى السلطة عند اليهود، ولهذا نجد أسفار "التناخ" المختلفة تحاول أن تجعل من الحكام مرتبطين بالدين بعامة و 'بيهوه ' الإله اليهودي بخاصة، كما تعرض لأولئك الذين ابتعدوا عن اليهودية وتبين عدم رضاها عنهم في أحيان كثيرة ومقاومة الأنبياء لهم في أحيان أخرى كما هو الحال بالنسبة للمك اليهودي 'خاب' وسلوكياته البعيدة عن رضا الرب والمنافية

للدين اليهودي حيث ينذره النبي' أرميا' بسوء العاقبة ويبن له أن الحلف مع المصريين لن يمنعه من السقوط بعد تخليه رفقة الكثير من الاسرائليين من أتباعه عن عبادة 'يهوه' (10)، كما نجد 'التناخ ' تنتقد بشدة الملك سليمان في الفترة التي تصوره فيها قد سمح بإقامة وعبادة آلهة وثنية في الهيكل لزوجاته الوثنيات الائى أثرنا عليه وعلى إيمانه الصحيح وجعلناه ينحرف عن عبادة 'يهوه' (11).

وبهذا يمكننا القول بأن الإيمان باليهودية والانتساب إلي يعقوب شرطين أساسيين لتولى السلطة، والملاحظ علي التوراة عدم ممانعتها تولي النساء السلطة فهي لم تقصيهم، رغم أن المرآة في اليهودية أقل درجة من الرجل، وإذا عدنا لنصوص' التناخ'نجدها تشير إلي بعض النساء ممن تولين السلطة السياسية و حتى النبوة نفسها، فقد تولت مثلا' ديبورة 'القضاء والنبوة في مرحلة حاسمة في حياة الشعب اليهودي إلا أن هذا لا يمنعنا من الإشارة إلي أن ذلك تم بمساعدة 'باراك'، كما كانت مريم أخت موسي نبية دون أن نهمل بعض البنات اليهوديات حيث كن ملكات وزوجات لملوك غير يهود وخدمن شعبهن بإخلاص، وقد خلدت التناخ البعض من هن في أسفارها كما هو الأمر بالنسبة ليهوديت وأستير، وإذا كنا قد وضحنا من يتولى السلطة، فان هذا يقودنا إلي التساؤل حول الكيفية التي توصل هؤلاء إليها.

ثانيا: طرق تولي السلطة في اليهودية: إذا عدنا إلى الكتاب المقدس وحاولنا إيجاد إجابة عن طرق تولي السلطة اليهودية، فإننا نجد أن هذه الديانة، لم تحدد طريقة خاصة، بل أن المتتبع لكتابها المقدس يلاحظ أن رجال الحكم من أنبياء، قضاة وملوك تولوا مناصبهم بأكثر من طريقة ولكننا بصورة عامة يمكننا حصر هذه الطرق فيما يلي :

1 ـ تولي السلطة يكون عن طريق يهوه.
2 ـ تولي السلطة عن طريق الوراثة.
3 ـ تولي السلطة عن طريق الانقلابات والاغتصاب.

1- يهوه واختيار الحاكم: يعتمد يهوه على الكهنة في اختيار الحاكم، إذ يلعب هؤلاء الدور الفعال في هذه الحالة، فيهوه يقوم بعملية الاختيار اعتماد عليهم، إلا في حالات خاصة عندما يمارس هذه السلطة بنفسه كما هو الحال بالنسبة " لموسى " الذي اختاره ليخلص شعبه وجعله مخلصا ومشرعا ورئيسا على الناس، وهذا ما يؤكده سفر الخروج بقوله:" فقال الرب إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخر يهم، إني علمت أوجاعهم فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جديدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبنا وعسلا فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر "(12).

ومن هذا النص نستخلص أنه في هذه الحالة تكفل "يهوه" بنفسه باختيار الحاكم، إذ يجب أن لا ننسى أننا هنا نتحدث عن موسى النبي والقائد السياسي والعسكري الذي

عبر ببني إسرائيل النهر حيث تولى جميع السلطات فكان يأمر وينهى كما نجد في سفر العدد قوله " فأمر موسى بني إسرائيل قائلا هذه هي الأرض التي تقتسمونها بالقرعة "(13)، كما كان أيضا يفصل في القضايا التي تنشب بين الناس، كما يشير إلى ذلك سفر الخروج بقوله: " وحدث في الغد أن تولى جالسا ليقضي للشعب "(14) وقد تكررت طريقة الاختيار هذه أيضا بوضوح في اختيار خليفة موسى، حيث نقرأ في سفر يشوع الإصحاح الأول منه " وكان بعد وفاة موسى عبد الرب، أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا، موسى عبدي قد مات، فالآن قم أعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لكم " (15).

وتعد مسألة اختيار الحاكم من الأهمية بمكان، وهذا ما جعل الرب لا يقتصر على تعيين موسى، ويوشع بن نون، بل أنه هو الذي كان يعين القضاة في الفترة التي صاحبت استقلال الأسباط بعضهم عن البعض الآخر، فإذا أخذنا الإصحاح السادس من سفر القضاة نجده يشير بوضوح إلى هذه المسألة، حيث يقول: " فظهر له ملاك الرب وقال له الرب معك يا جبار البأس، فقال جدعون أسألك يا سيدي إذا كان الرب معنا فلماذا أصابتنا كل هذه... فالتفت إليه الرب وقال اذهب بقوتك وخلص إسرائيل من كف مديان أما أرسلتك " (16)،وتكرر هذا التعيين مع كافة القضاة الآخرين (17)،وقد اختار "يهوه" أيضا "شاؤل" ملكا كما يذكر ذلك سفر"صموئيل الأول" في الإصحاح الخامس عشر بقوله: " وقال صموئيل: لشاؤل، إياي أرسل الرب لمسحك ملكا على شعبه إسرائيل، والآن فاسمع صوت كلام الرب"(18).

كما قد يخطئ الرب أيضا في اختيار شخص وهو ما حدث مرارا، وقد حث هذا عندما تمرد 'شاؤل' أوامر الرب، كما يؤكد ذلك سفر" صموئيل الأول" في قوله: " وكان كلام إلى "صموئيل" قائلا ندمت على أني قد جعلت شاؤل ملكا لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي " (19)، وفي هذه الحالة فإن الرب نفسه هو الذي يقوم بعملية تغيير الحاكم (20)، وهذا ما يستخلص من الإصحاح السادس عشر من" صموئيل الأول" دائما، حيث يطلب الرب فيه من النبي" صموئيل" الذهاب إلى بيت "عيسى التلحمى" ليعين ويختار من أولاده أحدهم والمسمي دود ملكا" فقال الرب قم أمسحه لأنه هذا هو، فأخذ "صموئيل" قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته، وحل روح الرب على دود من ذلك اليوم فصاعدا (21).

وهكذا يتضح للباحث أن مسألة اختيار الحاكم في المراحل الأولى للدولة العبرية لم يترك للشعب، أو حتى لمجلس الأعيان المعروف لديهم بالسنهدرين، وإنما يختار من قبل "يهوه" بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة عن طريق تكليف احد أنبيائه بتعين ومسح شخص يحدده الرب بنفسه، ويعود هذا إلى اعتبار اليهود أنفسهم شعبا مقدسا تحت تصرف الرب بل وأن حياتهم جميعها مكرسة له، من جهة وتعود أيضا إلى رغبة يهوه في السيطرة المطلقة على هذا الشعب خوفا منه ارتداده الذي كان دائما قريب من جهة

أخرى، لكن هل استمر ربهم في تعين الحكام واستبدالهم كلما ظهر له فساد وعدم صلاحية أحدهم ؟ أم أن لسنة التطور رأي أخر؟، بمعنى هل هناك طرق أخرى لتولي السلطة؟.

2- الوراثـة: إذا عدنا إلى كتب التاريخ بعامة والفقه السياسي بخاصة"و أردنا أن نبحث حقيقة الأمر فإن نجد أن هناك طرق أخرى ولعل أهمها الوراثة التي من أكثر الطرق اعتمادا في تولي السلطة قديما وحديثا، فالمصريين القدماء اعتمدوا عليها اعتمادا تاما.

وهذا ما جعل السلطة تنتقل من الآباء إلى الأبناء أو الأحفاد، وعند زوال أسرة من الأسر الحاكمة تتوارث الأسرة التي تخلف الأولى نظام الوراثة نفسه، ويطلق "كايد يوسف محمود فرغوس" في كتابه "طرق انتهاء ولاية الحكام في الشريعة الإسلامية والنظم الدستورية "على هذه الطريقة بالاستخلاف أو الاختيار المسبق "(22)، فهل عرفت اليهودية هذه الطريقة ؟، وكيف تعامل معها الفكر الديني والسياسي اليهودي؟.

إذا عدنا إلى "التناخ" نجدها تتحدث كثيرا عن فكرة الوراثة، بل أن اليهودية أساسا تقوم عليها، "فسارة" زوجة النبي"إبراهيم" رفضت بقاء جاريتها "هاجر" المصرية وابنها "إسماعيل" خوفا من أن يستأثر هذا الأخير بميراث أبيه" إبراهيم" أو حتى يشارك فيه خاصة وأنه الابن البكر.

وهذا ما يذكره صراحة سفر" التكوين " بقوله: " ورأت "سارة" ابن" هاجر" المصرية الذي ولدته "لإبراهيم" يمرح، فقالت "لإبراهيم" أطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني" إسحاق" " (23)، وبغض النظر عن الموقف المتعالي الذي نلاحظه عند" سارة"، فإن هذه الحادثة تتكرر مع"إسحاق" نفسه عندما رفضت " رفقة " زوجته أن يبارك ابنه البكر "عيسوا" ليصبح وريثا لأبيه.

وهذا ما جعل هذه الأخيرة تحتال ليأخذ ابنها الأصغر البركة وبالتالي وراثة أبيه " فخاطبت قائلة قد سمعت أباك يكلم عيسوا أخاك قائلا، اذهب للصيد واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي... اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين من المعز فاصنعها أطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته(24)، ولا تعد هذه الحوادث التي نشير بوضوح إلى أن دور الوراثة منعزلة، وتقتصر على القضايا الأسرية دون غيرها من قضايا المجتمع.

فالتوراة تجعل الكهانة وراثة في بيت " الآوين" بعامة وأبناء "هارون "بخاصة، وهذا ما يشير إليه سفر" الآوين" في قوله : " وكلم "موسى" قائلا أوصى "هارون" وبنيه قائلا هذه شريعة المحرقة[25]، وقوله : " وهذا قربان هارون وبيته الذي يقربونه للرب يوم مسحته"(26)، وقوله : " ويجعل بنوهارون الكاهن (27). ويشير سفر" العدد" صراحة إلى وراثة الكهانة في نسل "الآوين" بقوله: " فالرجل الذي يختاره الرب هو المقدس كفاكم يابني لآوى ... اسمعوا يابني لآوى أقليل عليكم إن إله إسرائيل أفر زكم

من جماعة إسرائيل(28). وإذا انتقلنا إلى نظام القضاة السياسي والديني نجد هؤلاء يستعملون الوراثة كطريقة لتولي السلطة، فهذا صموئيل يعين ولديه قضاة لإسرائيل" وكان لما شاخ صموئيل أنه جعل بنيه قضاة لإسرائيل، وكان اسم ابنه البكر يوئيل واسم ثانيه أبيا"(29).

ويعد "داوود" كما يرى "ميشال مرر Michel Mourre " المؤسس الحقيقي للملكية اليهودية(30)، وهو ما يذهب إليه حسن ظاظا عندما يشير إلى أنه رغم أن الملكية بدأت مع شاء ول، إلا أن مؤسسها الحقيقي الذي أرسى دعائمها هو وحكم شعبها هو داود (31). كما أكد هذا الأخير على أن الوراثة هي الطريقة المثلي لخلافته بتعيينه لولده سليمان خلفا له، بل أن جلوس سليمان على العرش كان أثناء مرض داود الأخير، بعد أن حاول أدونيا تولي السلطة فأعلن نفسه ملكا قبل وفاة والده وهذا ما يذكره سفر" الملوك الأول" بقوله: " ثم إن أدونيا بن حجيت ترفع قائلا أنا أملك وعد لنفسه عجلات وفرسان"(32).

وهو ما جعل داود يعلن عن وريثه سليمان بعد أن تدخلت والدة هذا الأخير بالاتفاق مع أحد الأنبياء وهو " ناثان " الذي أشار عليها بالكيفية التي تدفع داود لتعيين سليمان في منصبه، حيث طلبت من الملك أن يوفي بوعده لها " يا سيدي حلفت بالرب إلهك لأمتك قائلا إن سليمان ابنك يملك بعدي وهو يجلس على كرسي"(33)، ورد عليها داود بقوله " إنه كما حلفت لك بالرب إله إسرائيل قائلا إن سليمان ابنك يملك بعدي وهو يجلس عوضا عني كذلك أفعل اليوم (34).

ويروي سفر الملوك الأول الكيفية التي عين بها داود سليمان وريثا له وملكا بقوله : " وقال الملك داود أدع لي صادوق الكاهن ناثان النبي وبناياهو بن يهو باداع فدخل إلى أمام الملك، فقال الملك لهم خذوا معكم عبيد سيدكم واركبوا سليمان ابني على البغلة التي لي وانزلوا به إلى جيحون وليمسحه هناك صاد وق الكاهن ناثان النبي ملكا على إسرائيل واضربوا بالبوق وقولوا ليحي الملك سليمان، وتصعدون وراءه فيأتي ويجلس على كرسي وهو يملك عوضا عني وإياه قد أوصيت أن يكون رئيسا على إسرائيل ويهوذا" (35) وهكذا أصبحت أسرة داود أسرة ملكية تتوارث الحكم، حيث حكمت مملكة يهوذا إلى غاية سقوطها، كما أصبحت الوراثة أحد أهم طرق التولي عند بني إسرائيل سواء أكان ذلك في الجانب السياسي أو حتى فيما يتعلق بأمور الدين والكهانة. وبالتالي فإن الرئاسة في هذا المجتمع فعود في أحيان كثيرة إلى الوراثة، لكن هل معنى هذا خلو هذا النظام من كيفيات أخرى تتولى سلطة؟

3- التغلــب: الوصول إلى الحكم في العديد من الأحيان لا يعتمد فقط على يهوه أو الوراثة وإنما يتعداه إلى القوة، وإذا ما كانت الدولة الإسرائيلية أعطت للدين ويهوه السلطة العليا وجعلت من نظامه نظاما ثيوقراطيا، إلا أن المتتبع للنظام السياسي الإسرائيلي يلاحظ أن هؤلاء لم يسلموا أمورهم طواعية ليهوه، بل أن هذا الأخير فرض

عليهم نفسه فرضا وهذا ما نلاحظه في نصوص التوراة بصورة عامة، فرغم تحريره بني إسرائيل من المصريين، والرعايا والمساعدة التي قدمها لهم، إلا أنه ما عرف بشعب الله سرعان ما نجده يسلك طريقا وسبلا بعيدة عن "يهوه" ومعارضة له، وهذا ما يذكره سفر الخروج في الإصحاح السادس عشر بقوله : " لكنهم لم يسمعوا لموسى ... وحدث في اليوم السابع أن بعض الشعب خرجوا ليلتقطوا فلم يجدوا فقال الرب لموسى إلى متى تأبون أن تحفظوا وصاياي وشرائعي " (36).

بل أن هذا العصيان والتمرد نجده يتعدى الشرائع والوصايا المفروضة عليهم إلى التخلي نهائيا عن عبادة يهوه بمجرد غياب موسى المؤقت، فقال الرب لموسى اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك (37) الذي أصعدته من مصر، زاغوا سريعا عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا وذبحوا له وقالوا هذه ألهتك بإسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر (38)، وقد أنزل علهم الرب عقابا شديدا بسبب هذا (39).

وهكذا نجد الإسرائيليين لا يعودون لعباده يهوه إلا بعد أن يقوم الرب بمعاقبتهم من خلال تسليط الآخرين عليهم كما يذكر صابر طعيمة في كتابه "تاريخ اليهود العام " أن الإسرائيليين استعبدوا العديد من المرات قد تمتد فترة الاستعباد إلى أربعين سنة، كما تقل أحيانا إلى سبع سنين، وهذا حسب طبيعة الجرم أو بالأحرى التمرد(40). وهذه الطبيعة المترسمة في المجتمع الإسرائيلي جعلت الاستيلاء بالقوة على الحكم أحد أكثر الطرق انتشارا في المجتمع اليهودي، فحسب الرواية التي يقدمها الكتاب المقدس نجد الانقسام الحاصل بعد وفاة شاؤل قاد إلى تعيين إبن هذا الأخير ملكا على قسم من أسباط إسرائيل تحت سلطة القائد العسكري شاؤل، وهذا ما نجده في صموئيل الثاني " وأما أبنير بن بشر رئيس جيش شاؤل فأخذ إيستوسنت بن شاؤل وعبر به إلى محنايم وجعله ملكا (41) بل أن أبشالوم بن داود تمرد على والده وأخذ الملك بالقوة مما جعل داود صاحب السلطة التشريعية الإلهية يهرب داود من وجه ابنه " وأرسل أبشالوم جواسيس في جميع أسباط إسرائيل قائلا إذا سمعتم صوت البوق فقولوا قد ملك أبشالوم... فأتى مجز إلى داود قائلا: إن قلوب رجال إسرائيل صارت وراء أبشالوم، فقال داود لجميع عبيده الذين معه في أورشليم قوموا بنا نهرب لأنه ليس لنا نجاة من وجه أبشالوم "(42).

ولم يستعد داوود سلطته إلا بعد قتل أبشالوم، ثم أن سليمان رغم كونه تولى الملك بأمر داوود إلا أنه قام بتصفية جميع خصومه السياسيين وعلى رأسهم أخوه " أدونيا " الذي حاول تولي السلطة في أواخر حياة والده بالقوة (43).

وبصورة عامة فقد تكررت هذه الكيفية ونقصد بذلك الوصول إلى السلطة عن طريق التغلب والانقلابات خاصة بعد انقسام مملكة سليمان إلى مملكة يهوذا وإسرائيل، هذه الأخيرة التي تمردت نهائيا عن سلطة أسرة داوود،بهذا نجد عمليات الاغتيال السياسي، والانقلابات العسكرية غالبا ما كانت الكيفية الغالبة في أكثر من الحالات التي أوصلت أصحابها للسلطة أو أرغمتهم على الخروج منها.

فملك مملكة"يهوذا" أيله بن بعشا، قتله أحد قادة جيشه المعروف باسم "زمري"

واستولى على السلطة بدلا منه، كما يشير إلى ذلك سفر الملوك الأول بقوله: " في السنة السادسة والعشرين ملك أيله بن بعشا على إسرائيل في نزهة سنتين، ففتن عليه عبده زمرى رئيس نصف المركبات... وضربه فقتله... وملك عوضا عنه، وعند تملكه وجلوسه على كرسيه ضرب كل بيت بعشا... مع أوليائه وأصحابه...(44).

وتعلل التوراة مثل هذه الانقلابات والاغتيالات على أنها نتيجة لخطايا ارتكبها الملك السابق، ولا تعود إلى عجز في التسيير وإنما نتيجة لابتعاده عن الرب وبالتالي فهي خطايا دينية "فزمري" هذا يقتل سيده نتيجة لغضب "يهوه" عليه" لأجل كل خطايا بعشا وخطايا إيلة ابنه التي أخطئها وجعل إسرائيل يخطئ لإغاظة الرب إلى إسرائيل بأباطيلهم"، إلا أن يد الانتقام الإلهي التي يمثلها "زمري" هنا تتعرض هي الأخرى إلى القتل والانتقام " وصعد عمري من جينوح وكل إسرائيل معه وحاصروا "قرصة" ولما رأى زمري أن المدينة قد أخذت دخل إلى قصر بيت الملك وأحرق على نفسه بيت الملك" (45).

وما أردنا قوله هنا أن الوصول إلى السلطة عن طريق التغلب والانقلابات العسكرية لا يعد حدثا معزولا في النظام السياسي الذي تقدمه"التناخ" بل أنها لا تكتفي بذلك بل تعطيه شرعية وتبرير، مما يجعله نظام سياسي مقبول، ولا تجعل من الملك القتيل ضحية لاغتصاب السلطة من الآخرين بل أنها تتشفى فيه، وتفسير ذلك بسبب الخطايا التي ارتكبها. لكن الغريب أنه حتى الملك الجديد الذي مثل من قبل يد الانتقام الإلهي يتعرض هو الآخر إلى ما تعرض له خلفه.

وبالتالي تتكرر عملية التبرير هذه وكأننا أمام الشعار الشهير: "مات الملك عاش الملك" ويمكن الإشارة هنا أن عملية التبرير هذه تجعل الملك الجديد كما أشرنا سالفا كامل الشرعية لأن "يهوه" هو الآخر يبارك هذه السلوكيات والأفعال وهو ما هيأ ظروف الانقسامات والانحرافات التي ميزت فترة ما بعد "داو ود" و"سليمان" وانتهت بتدمير النظام السياسي اليهودي والسبي البابلي وتشتت اليهود في العالم.

وخلاصة القول في هذا المجال أن اليهودية لم تعرف طريقا محددا وحيدا لاختيار الحاكم كما أنها لم تتبع لذلك نموذجا ونهجا خاصا بها، وإنما استعارت المناهج والطرق المعتمدة من قبل جيرانها وعملت بها، ولم تجعل من طريقة التولي تنقص أو تطعن بشرعية الحاكم، فالحاكم شرعيا إذا اختاره"يهوه" ومسحه الأنبياء أو تولاها عن طريق الوراثة ومسحه الأنبياء والكهنة أو حتى استولى عليها عن طريق التغلب، ما دام يتبع وصايا "يهوه" الموجودة في التوراة أو تلك التي ينقلها الأنبياء والكهانة.

وإذا ما خالفها فإن ذلك يقوده ويعرضه إلى فقدان شرعيته وهو ما يدفعنا إلى التساؤل حول الكيفية التي يتم بها عزل الحاكم وهو ما يناقشه المبحث الموالي.

ثالثا : طرق عزل الحاكم في "التناخ:تعد مسألة عزل الحاكم واستبداله شديدة الحساسية من جهة وخطيرة من جهة أخرى، إلا أن هذا لا يدفعنا إلى إهمالها بقدر ما يدفعنا إلى مناقشتها.

وإذا ما كان المجتمع العبراني عرف طرقا متعددة لتولي السلطة؟ فهل عرف طرق مختلفة لعزل الحاكم؟ أم أن الحاكم الإسرائيلي كان يتولى السلطة دون أن يتنازل عنها

أو يعزل منها؟.

وأخيرا هل كانت طرق العزل هذه عبرانية خالصة انفرد بها الإسرائيليون، أم أنهم قلدوا غيرهم في ذلك؟

ولمناقشة هذه المسألة لا بد أن نعود إلى أسفار "التناخ" حيث نجد فيها أن النظام السياسي العبراني من أكثر الأنظمة السياسية اضطراب. أما إذا رعينا في أن نحدد طرق العزل هذه أو بالأحرى الكيفية التي تم فيها إنهاء سلطة الحاكم فإنه يمكننا أن نؤكد على أن هناك أكثر من طريقة نستطيع الإشارة إليها وتحديدها في ثلاث طرق هي :

1- العزل عن طريق "يهوه".

2- انتهاء السلطة نتيجة للوفاة.

3- انتهاء السلطة نتيجة للانقلابات(46).فبماذا تمتاز كل طريقة عن غيرها؟ وكيف نظرت التناخ لهذه الطرق؟ للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها لا بد كأن نناقش كل طريقة على حدي.

1- العزل عن طريق يهوه: تحدثنا سابقا وقلنا على أن أكثر الطرق وأولها اعتمادا في تولي السلطة في المجتمع الإسرائيلي هي طريقة التعيين التي يمارسها الرب"يهوه" وبالتالي فإن مصدر السلطة إلهيا خالصا، فهل معنى هذا أن الذي يعين بهذه الطريقة لا يعزل؟ إذا كان من الممكن عزله، فمن يقوم بذلك؟

الواقع أن اليهودية تجعل من نفسها ديانة خاصة، كما تجعل من الشعب الذي يعتنقها شعبا خاصا، فهو شعب الله، كما أن الحاكم الذي يتولى السلطة فيها يمتاز بمواصفات خاصة، لكن هذا لا يجعله يتمتع بشرعية مطلقة ودائمة، بل أنه أكثر من غيره عرضة للتبديل والتغيير بمجرد أن يخرج عن إرادة "يهوه"،"فصموئيل" رغم كونه مسح" شاؤل" ملكا إلا أن هذا الأخير بمجرد أن تخلى وخالف وصايا الرب تعرض لغضب الله، وبالتالي استحق العزل، وهذا ما نجده صراحة في سفر "صموئيل" الأول " وأرسلك الرب في طريق وقال اذهب، ... وحاربهم حتى يفنوا فلماذا لم تسمع لصوت الرب بل ثرت على الغنيمة وعملت الشر في عين الرب..." (47)، وبالتالي قد استحق العزل من الرب الذي يخبر بندمه صموئيل بقوله:" ندمت على أني قد جعلت شاو ول ملكا رجع من ورائي ولم يقيم كلامي(48)، إلا أن هذا لا يعني إطلاقا أن الحاكم الجديد يستطيع أن يمارس سلطته مباشرة، وإنما ذلك لن يتم إلا بعد أن يموت المغضوب عليه أو يقتل، "فداود" نفسه لم يتمكن من ممارسة سلطته السياسية إلا بعد مقتل" شاو ول" كما يذكر ذلك الإصحاحين الأول والثاني من"صموئيل الثاني" في قوله:" وكان بعد موت شاو ول... أتي رجال يهوذا ومسحوا هناك داود على بيت يهوذا..."(49).والواقع أن "شاؤل" لا يعد الملك الذي يغضب عليه "يهوه" و"يعزله" بل أن "داود" نفسه عزل نتيجة للخطيئة (50) التي ارتكبها، ولم يستطيع أن يعود إلى السلطة إلا بعد أن رضي عليه الرب وتمكن من التغلب على ولده "أبشالوم" الذي قاد ثورة ضده (51).

2- انتهاء سلطة الحاكم نتيجة للوفاة: لا يتخلى الكثير من الحكام عن السلطة إلا بالوفاة، وهذا ما نجده في الأنظمة السياسية التقليدية منها والحديثة، وهذا ما عرفه العبرانيون أيضا، فسلطة موسى السياسية والدينية لم تنتقل إلى غيره إلا بعد وفاته كما

يذكر ذلك سفر "يشوع" بقوله:" وكان بعد موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون، خادم موسى قائلا موسى عيدي قد مات فالآن قم أعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل..."(52) وإذا استرسلنا في هذا الأمر نجد "سليمان" يتولى السلطة السياسية بعد وفاة والده داود ولا يتخلى عنها إلا بعد وفاته (53).

ومن هنا يمكننا القول أن الحاكم حسب التصور العبراني لا يتولى السلطة بكيفية محددة وحيدة، فهو يتولاها نتيجة لكيفيات مختلفة ونتيجة للظروف، وهذا ما جعل العديد من الملوك يعينون من قبل "يهوه" في حين يصل بعض منهم عن طريق الوراثة، بينما يستولي البعض الآخر على السلطة بالقوة، كما نجد طرق انتهاء الولاية أو انتقال السلطة تتعدد وتختلف فمرة نجد "يهوه" هو الذي يعزل ويتخلى عن الحكام فيفقد شرعيته، ومرات أخرى نجد ذلك نتيجة للانقلابات العسكرية أو الوفاة.

ومعنى هذا أنه رغم أن الطابع الثيوقراطي الذي لا يكاد يختفي في أية فترة من فترات دولة العبرانيين، إلا أن هذا لم يجعلهم ينفردون بنظام سياسي خاص بالحكام سواء أكان ذلك في طرق التولي أو العزل. فهل عرفوا شروط خاصة لتولي السلطة ؟

وما يمكننا أن نقوله في نهاية هذا المبحث أن اليهودية اعتبرت الحاكم أساس النظام السياسي ولهذا نجده تهم كثيرا بالحديث عنه، فعرضت لطرق توليته مبينة أن هناك أكثر من كيفية لذلك، فالحاكم اليهودي يتولى السلطة إما عن طريق الاختيار الإلهي المباشر أو غير المباشر وهو ما نجده شاؤل وداود مثلا في حين نجد سليمان وبعض الملوك الآخرين يقولون السلطة نتيجة للوراثة في حين نجد بعض الحكام يستولون على السلطة بالقوة والانقلابات، أما عن طرف عزل الحاكم اليهودي فتتنوع هي الأخرى بين تدخل يهوه في المسألة بعد أن يقوم الملك بالتمرد على سلطة الإله، أو سلط عليه انقلابا أو نتيجة لوفاة الحاكم، وفي كل الحالات فإن من يتولى السلطة يجب أن يكون يهوديا من غير شل هارون من جهة ومن جهة ثانية يجب أن يكون مؤمنا باليهودية مطيعا ليهوه منفذا لأوامره ورغباته.

المصادر والمراجع

1- برهان غليون ، نقد سياسة الدولة والدين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، عمان، ط1، 1991.

2- المملكة المتحدة البريطانية، السعودية، المغرب، وغيرها.

3- عبد الرحمن مرحبا ، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدات بيروت ، ص 141 .

4- محمد علي محمد، علي عبد المعطي محمد، السياسة بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية، بيروت، ص 67.

5- ول ديورانت ، قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله المشعشع دار المعارف بيروت، ص 30 .

6- أبو نصر الفارابي، أراء أهل المدينة الفاضلة، دار المشرق، بيروت، ص.122

7- الخروج، 41/28 - 43.

8- باروخ سبينوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، دار الطليعة، بيروت

ص 402.
9 - أخبار الأيام الأول: 28 /4.
10- ارميا2/.17
11- الملوك الأول:1/11
12- خروج : 7/3، 8، 10 .
13- عدد : 13/34 .
14- خروج : 13/18 .
15- يشوع : 1/ 25 .
16 - القضاة : 11/6، 12، 14 .
17- أنظر سفر القضاة
18- صموئيل الأول : 1/15 .
19- القضاة : 10/15، 10 .
20- سنتحدث في موضع آخر عن أسباب ندم الرب وطرق تغيير الحاكم عند اليهود طبعا .
21- صموئيل الأول : 13/16 .
22- كايديوسف محمود فرغوس ، طرق انتهاء ولاية الحكام في الشريعة الإسلامية والنظم الدستور، مؤسسة الرسالةط1، 1407 هـ، 1987م، ص 197 .
23- التكوين : 109/21 .
24- التكوين : 6/26، 6، 7، 9، 10 .
25- اللاوين : 8/6 .
26- اللاوين : 19/6 .
27- اللاوين: 7/1 .
28- العدد : 8/16، 9.
29- صموئيل الأول : 1/8، 2 .

30- Michel Mourre: Dictionnaire encyclopédique d'histoire , Bordas, Paris,1978, p 2460.
31- حسن ظاظا ، الفكر الديني الإسرائيلي، ص 38. نقلا عن أحمد محمود المراغي، ص 26 .
32 - الملوك الأول : 5./1
33- الملوك الأول : 17/1 .
34- الملوك الأول : 30/1 .
35- الملوك الأول : 22/1، 25 .
36- خروج : 20/16، 27 .
37- لاحظ هنا تعبير شعبك بدل من تعبير شعبي الذي كان متداولا، ولعل هذه الكلمة كلمة غضب.
38 - خروج : 7/32، 8 .
39- أنظر الخروج : 35/32 .

40- صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام، دار الجيل، بيروت، ط3، 1411 هـ، 1991 م، ص 143 - 144.
41- صموئيل الثاني: 8/2 .
42 - صموئيل الثاني : 10/15، 13، 14 .
43- صموئيل الثاني: 19/18 .
44- الملوك الأول: 8/16-11.
45 -الملوك الأول: 19.17./16
46- ناقشنا هذه النقطة عندما تحدثنا عن التغلب.
47- صموئيل الأول: 18/15.
48- صموئيل الأول: 11/15.
49- صموئيل الثاني: 4.1./2.1
50- خطيئة داود نتيجة لزواجه من زوجة أرويا قائده العسكري.
51- في الفصل هذه المسألة أنظر صموئيل الثاني الإصحاح الثالث عشر وإلى غاية الإصحاح التاسع عشر.
52- يشوع: 1/1.
53- أخبار الأيام الثاني: 3.2.1/10